

Habermas et la construction de l'esprit communicatif :

Du paradigme de la philosophie de la conscience au paradigme de la communication linguistique

هابرماس وتأسيس العقل التواصلي: من براديجم فلسفة الوعي إلى براديجم التواصل اللساني

سعيد بالعالية¹، أحمد مصلح¹

¹University Ibn Tofail. Laboratory of Man, Society and Values, Kenitra, Morocco

Résumé:

Dans cet article, nous nous sommes appuyés sur le livre « Théorie de l'agir communicationnel Tome 1 : Rationalité de l'agir et de rationalisation de la société » comme base sur laquelle reposait le projet philosophique et social de Habermas. Notre objectif est d'étudier : comment Habermas a développé une théorie sociologique de l'action à travers d'un noyau rationnel de l'agir communicationnel, et comment il a dégagé le concept d'une raison communicationnelle. Notre objectif était d'étudier les distinctions entre l'action non communicative et l'action communicationnelle linguistique. Nous avons essayé de nous arrêter au dispositif conceptuel avec lequel Habermas a fondé la théorie de l'action communicative, et nous entendons : la rationalité communicative, l'efficacité communicative et le monde vivant en tant que système dans lequel l'harmonie intersubjective et le consensus rationnel sont atteints sur la base d'une composante argumentative. Nous avons conclu que Habermas a orienté ses recherches sur l'activité sociale à travers sa dimension communicative intersubjective. Habermas a invoqué diverses références de la pensée occidentale à ses niveaux philosophique et social, et a adopté une position critique à leur égard, notamment en ce qui concerne leur approche de l'action communicative et de la théorie argumentative, et la réalité sociale.

Mots clés :

Rationalité, communicationnel, société, action, théorie de l'action, linguistique, intersubjective, pensée.

تقديم:

كان اهتمام هابرماس، خلال عقد الستينيات موجه نحو مقارنة طبيعة العلاقة بين النظرية والممارسة بشكل مباشر، فقد عمل على تحليل أشكال الاحتواء الاجتماعي بأنماطه المختلفة، كما انتقد الايدولوجية المهيمنة داخل المجتمعات الحديثة. وقد اعتمد مرجعية "سياسية مثالية لتشكيل فضاء ديمقراطي للعلاقات الاجتماعية، والتي من خلالها يكون كل قرار سياسي مرتبط بتوافق تواصلي"¹. إذ كان المشروع الفكري لهابرماس متجها نحو إقامة " فضاء عمومي "حدثي وديمقراطي، يقوم على" تشاور سياسي " من خلال بناء علاقات اجتماعية مؤسسة على التوافق والتشاور والإجماع.

احتاج هابرماس، من أجل تأسيس مشروعه الفكري، إلى أسس معيارية نظرية وفكرية، وجهاز مفاهيمي، وقد وجد في الإرث الفلسفي الحدثي، والعلوم الاجتماعية، واللسانيات مرجعية لبناء أطروحته حول المجتمع، من خلال " نظرية الفعل التواصلي". ونشير إلى أن التباعد النظري والمعياري بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية " أربك" هابرماس، إذ قد يحدث أن تضيع الأسس المعيارية ذات الطابع الفلسفي لمشروعه داخل المجال الاجتماعي أو العكس، لكن مع ظهور مؤلفه العملاق نظرية الفعل التواصلي، والذي ظهر في سنة 1981، تبين أن فكر هابرماس " يسكن رحاب الفلسفة ويقوم، أيضا، داخل علم الاجتماع لدرجة سمي معها ب " الفيلسوف عالم الاجتماع أو عالم الاجتماع الفيلسوف".

تعتبر " نظرية الفعل التواصلي " معلمة الفكر الفلسفي وعلم الاجتماع المعاصرين. فقد عمل هابرماس على بناء نظرية اجتماعية للفعل التواصلي مرتبطة أساسا بالانتقال من براديغم " فلسفة الذات " أو " فلسفة الوعي" إلى الفلسفة البنيدانية التي يشكل فيها التواصل اللغوي حجر الأساس. ويعرف هابرماس الفعل التواصلي كما يلي:

1- Habermas(J) : « Théorie de l'agir communicationnel »,T.1, T. Ferry. Ed Fayard, 1987,P 60

" أسمى الفعل التواصلي شكل التفاعل الاجتماعي ، والذي من خلاله يكون هدف عدد من الفاعلين تنظيم تبادل النشاط التواصلي بقدرتهم على استعمال اللغة تحقيقا لتفاهم . " ¹

ويتضمن مشروع هابرماس الفكري ،والذي أرسى أسسه العامة في مؤلفه " نظرية الفعل التواصلي " جهازا مفاهيميا أصيلا ،عاود التعريف به من خلال كتابه " منطق العلوم الاجتماعية " ،ونجد مجموعة من المفاهيم ذات الطابع الإجرائي ،مثل الفعل الغائي و الفعل الاستراتيجي و التفاهم ، والإجماع ،والعالم المعيش ، ،والثقافة ،والنشاط غير الاستراتيجي ، والتفاعل الاجتماعي ... الخ، كما يتضمن هذا المؤلف مستوى نقدي موجه بالأساس لفلسفة الوعي والاتجاهات السوسيولوجية، والتي تميزت بمقاربات أحادية للفعل الاجتماعي، ثم مستوى تأسيسي الذي يطرح فيه مجموعة من المفاهيم، مثل مفهوم العقل التواصلي ومفهوم النشاط التواصلي.

1 - العقلانية التواصلية:

قد لا ننتظر هابرماس كي يقول لنا أن العقل يشكل الموضوع المركزي للفلسفة؛ فمذ أفلاطون وإلى غاية فلسفة ما بعد الحداثة كان الاهتمام موجها إلى التفكير في مبادئ العقل واليات استعماله ؛ لكن نحتاج إليه حتى " ينتزع " مفهوم العقل من " فلسفة الوعي " ليوظفه في إطار العلوم الاجتماعية ، وقد أدرك هذا الأمر عندما قال: " داخل إطار العلوم الإنسانية تكون السوسيولوجيا، من خلال مفاهيمها الأساسية الأكثر ارتباطا بإشكالية العقلانية"¹.

إن فلسفة العقل وقفت عند حدود " الذات " محاولة ربط إنتاج المعرفة والحقيقة بتأمل الذات ، وطبع العقل بخاصية التعالي عن كل ماهو واقعي ويومي ، وهذا لم يعد ممكنا في الفكر المعاصر " إذ لم تعد الفلسفة اليوم قادرة على إنتاج معرفة كلية حول العالم، والطبيعة ، والتاريخ ، والمجتمع ، ليس بسبب التطور الذي عرفته العلوم التجريبية فقط ، و إنما لأن الوعي التأملي ، والذي صاحب هذا

¹ – Munster (A) : « Le principe de la discussion Le principe: Habermas ou le Tournant langagier et communicationnel de la théorie critique», Ed , Kimé , 1998 p .27

¹ Habermas (j) : « théorie de l'agri » ,op cit., p.19.

التطور ، لم يعد قادرا على إنتاج بدائل نظرية لصور العالم ، ومن تم رجوع الوعي الفلسفي لينتقد ذاته (...) فاستحال إلى ميتافيزيقا " ¹.

يمكن أن نجد عند هابرماس نقدا مفصلا للفلسفة بجميع مراحلها من الفلسفة الكانطية والهيلجية، والماركسية إلى حدود فلسفة ما بعد الحداثة مع فوكو، وهايدجر، ونيثشه. لا يهنا هنا استعراض أشكال هذا النقد بقدر ما نسعى إلى توضيح أن هابرماس ينخرط في فلسفة نقد العقل وإعادة تأسيسه. فإذا كانت فلسفة نقد العقل قد ظهرت ملامحها الأولى مع كانط الذي أقام "محكمة العقل"، ودشن من خلالها " العقل الترانسندنتالي " الذي يضع من خلاله حدودا للعقل. فإن هابرماس أعاد إستراتيجية " إعادة بناء العقل " وفق معيار المعرفة الاجتماعية وشروط إنتاج العقل التواصلي.

أما عن الماركسية فيقول هابرماس: " تأخذ الصيرورة الدائرية، حيث يتقاطع العالم المعيش والممارسة التواصلية اليومية في نظرية الفاعلية التواصلية، مكان الوساطة التي كان ماركس والماركسيون قد خصصوها للبراكسيس الاجتماعي " ². وفي نقده للهيلجية يؤكد أن " نظرية الفعل التواصلي " تسمح بإعادة بناء التصور الهيلجي للكلية الأخلاقية، إنها تفك سحر السببية الممتنعة لمصير سيمير بمحايطته الصلبة عن مصير الإنسان " ³.

قام هابرماس بإكمال سيرورة " نقد العقل " ، لكن وفق مستوى آخر ، مستوى تواصلي تلعب فيه العلوم الاجتماعية دورا محوريا. والجديد عند هابرماس هو إدخال مفهوم فلسفي خالص إلى العلوم الاجتماعية هو مفهوم العقلانية ، " كيف يمكن للسوسيولوجية أن تظهر كفاءاتها في تناول إشكالية العقلانية ؟ " ⁴

وقد نتساءل : كيف حدد هابرماس مفهوم العقلانية التواصلية ؟

أصبح واضحا أن هابرماس يعتمد المرجعية السوسيولوجية لبلورة مفهوم العقلانية التواصلية ، ويرجع أسباب اختياره لعلم الاجتماع إلى ما أبانت عليه

¹ - Ibid. p18

² يورغن هابرماس: " القول الفلسفي للحداثة"، ترجمة فاطمة الجبوشي، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1995 ص485

³ Habermas (j) : « théorie de l'agri » ,op cit.,p. 484

⁴ Ibid. p.18

السوسيولوجية من قدرة على طرح إشكالية العقلانية، فهي من جهة، وباعتبارها نظرية المجتمع البورجوازي ، اهتمت بتاريخ تطور المجتمع البورجوازي، ومن جهة أخرى، وعلى مستوى ميتا- نظرية، عرفت كيف تنتقي مفاهيم أساسية قاربت من خلالها الظواهر العقلانية في تقاطعها مع العالم المعيش . أما على مستوى المنهج، فقد عرفت كيف تعمل على تحليل دلالة ومعنى الأشياء انطلاقاً من الوقائع الرمزية.

ومن هذا المنطلق السوسيولوجي حدد هابرماس ثلاث أسئلة لمشروعه حول الفعل التواصلي: " أولاً، سؤال ميتا- نظري لإطار نظرية النشاط الاجتماعي ، والتي يوضح فيها تصور المظاهر التي يكون فيها الفعل قابلاً أن يكون عقلانياً، ثانياً، السؤال المنهجي لنظرية فهم المعنى (هيرمونيطيقاً) ، والتي تفسر العلاقات الداخلية بين الدلالة والصلاحية (بين تفسير دلالة تعبير رمزي وأخذ موقع ارتباطاً بالبحث عن الصلاحية). ثالثاً ، معرفة بأي معنى يمكن وصف حادثة مجتمع ما من وجهة نظر العقلانية الثقافية والاجتماعية " 1.

يعود هابرماس إلى الفكر " الأنجلوساكسوني " ، ويرى في ماكس فيبر مرجعية سوسيولوجية أساسية لبناء نظرية الفعل التواصلي ، ويؤكد أن " الرابط بين الأسئلة الثلاث قد حضر بشكل واضح لدى ماكس فيبر . لينتهي إلى أن إشكالية العقلانية تقوم حول ثلاث محاور متزامنة: ميتا- نظري ، ومنهجي ، وواقعي ، يقول : " سأبدأ بتقديم تعريف مؤقت لمفهوم العقلانية ، ثم سأوضح العلاقة الداخلية بين نظرية المجتمع ونظرية العقلانية " 2.

كلما استحضرننا مصطلح " عقلائي " افترضنا علاقة مباشرة بين العقلانية والمعرفة، ولكن لا يمكن عزل المعرفة عن المنطوق أو اللغة، وبذلك لا بد من ربط العقلانية باللغة، " لأن ما يربط العقلانية بالمعرفة وإنتاجاتها ، هو ما يربط العقلانية بالكيفية التي من خلالها تكون الذات قادرة على الكلام والفعل المطابق للمعارف التي تحصلها " 3 .

¹ Ibid. p.22

² Ibid. p.23

³ Ibid. p.24

بهذا المعنى يمنح هابرماس مقارنة جديدة للعقلانية، فهي ليست تجل لعقل تأملي وفق مبادئ " متعالية " ، فمظاهر العقلانية تكمن أساسا في اللغة المنطوقة. يضع هابرماس وفق هذا الطرح ، أول تعريف له للعقلانية: " يمكن أن نسمي عقلائي كل الرجال والنساء ، والأطفال والراشدين (...) ، لكن لا نطلق (عقلائي) على الأسماك والجبال (...)، ويمكن أن نسمي (لاعقلائي) الاعتذارات، وتقارير الحرب ... " ¹.

نلاحظ أن هابرماس يتجنب استعمال مفهوم " عقل "، ويستعمل مفاهيم "عقلانية" و"عقلاني" ، وقد يرجع ذلك إلى ما يحمله مفهوم عقل من دلالة فلسفية مجردة، في حين يحيل مفاهيمي " عقلائي" و " عقلانية " على الذات الفاعلة، والتي يميزها نشاط وحركة اجتماعيين. من تم يطرح السؤال : " كيف نقول أن مجموعة من الأشخاص ، أمام موقف معين ، يتصرفون بشكل عقلائي ؟ كيف نقول إن تعبيراتهم الكلامية يمكن أن تكون " عقلانية " ؟ ².

سنحاول، من أجل الإجابة عن مفهوم العقلانية وفق تصور العقل التواصلي كما حدده هابرماس، أن نرجع إلى مجموعة التعريفات الإجرائية التي ميزته.

وأول مقارنة تعريفية لمفهوم العقلانية، وضعها هابرماس وفق البعد الإدراكي يريد بها ربط مفهوم العقلانية بمرجعية تطبيق معرفة وضعية. فإذا ما اعتبرنا التطبيقات اللاتواصلية لمعرفة نسبية داخل الأفعال الموجهة نحو هدف معين، وفق تصور العقل التواصلي، فإننا سنأخذ بشكل مباشر مفهوم العقلانية الإدراكية -الأدائية ، أما إذا اعتبرنا التطبيقات التواصلية لمعرفة نسبية داخل الأفعال اللغوية ، فإننا سنأخذ بمفهوم أكثر اتساعا لمفهوم العقلانية . " ومفهوم العقلانية التواصلية هذا يتضمن دلالات تحيل في نهايتها إلى تجزئة مركزية لقوة خطاب حاجاجي، والذي يسمح بتحقيق التفاهم وإحداث الإجماع." ³. فداخل الخطاب

¹ Ibid. p .24

² Ibid. p .24

³ Ibid. p .26/27

الحجاجي يستطيع المشاركون المختلفون تجاوز الذاتية نحو ضمان وحدة عالم موضوعي وتحقيق البينذاتية كخلفية موحدة لحياتهم.

حدد هابرماس بعدين من خلالهما يمكن تحليل العقلانية التي يتم تطبيقها على مفهومين: مفهوم المعرفة النسبية ومفهوم العالم الموضوعي . ويمكن الفرق بين هذين المنظورين في الكيفية التي تطبق بها المعرفة النسبية. " ويمكن النظر إلى الكيفية التي تطبق بها هذه المعرفة من جهتين: من جهة الاحتواء الأداتي، ومن جهة التفاهم التواصلية الذي يظهر غاية قصوى داخلية للعقلانية"¹.

بعد ذلك حدد هابرماس موقعين : موقع سماه بالواقعي، وموقع سماه بالفينومينولوجي. ويعني بالواقع كل تحديد للشروط التي على الذات استيفائها بهدف تحقيق غاية ، وهنا يتعلق الأمر بالأفعال العقلانية داخل عالم الأشياء، أي كل الأفعال العقلانية التي تنتج نحو تحقيق غاية خارجية ،بمعنى الأفعال المتجهة نحو حل المشاكل. ويعني بالموقع الفينومينولوجي أن تكون الأفعال العقلانية ،ذات الطابع الموضوعي ،تنتهي إلى جماعة تواصلية، تتصرف الذات وفق معطياتها المجردة سواء على مستوى العقل أو القول. وهذا العالم المجرد ، والذي يعتبر خلفية لكل فعل موضوعي يعتبر " شرط أساسي حتى تكون الذات التي تقوم بالفعل التواصلية قادرة على التفاهم بينها"². وبهذه التطبيقات التواصلية تضمن الذات الفاعلة فضاء مشتركاً لحياتها، وعالماً معيشاً بينذاتياً مشتركاً.

يؤكد هابرماس على وجود علاقات داخلية بين الموقع الواقعي والموقع الفينومينولوجي . فإذا ما أردنا وضع تعريف شامل للعقلانية بمفهومها الإدراكي- الأداتي ، فإن العقلانية تتطور من خلال مشروع واقعي . ويتابع أنه يمكن قياس العقلانية هنا بمدى النجاح الذي تحققه الذات أثناء تدخلها في موضوع ما، كما يمكن الحديث عن هذه العقلانية في إطار الاختيارات التي تكون للشخص ،والتي يعمل وفقها داخل شروط موضوعية معينة. لكن يمكن أن تقاس العقلانية بمدى تقدم عملية التفاهم، وهنا يتراجع مقياس مدى نجاح الشخص في اختياراته الموضوعية أمام

¹ Ibid. p. 27

² Ibid. p. 29

إمكانية قياس العقلانية، بمدى قدرة الشخص على إنجاز عملية التفاهم وفق الإقناع، والذي يرتبط أساسا بمدى صلاحية دعواه ، يقول : " في إطار الفعل التواصلي يمكن اعتبار الشخص العقلاني ذلك الشخص القادر على توجيه فعله أو نشاطه وفق إدعاءات الصلاحية البيئذاتية كما تم التعارف حولها"¹. إذ يشترط ،هنا هابرماس ، في الفعل العقلاني التواصلي دواعي الصلاحية كما تم الاتفاق حولها في إطار العلاقات البيئذاتية.

ويضع هابرماس في مستوى ثان تعريفا آخر للعقلانية: " نسمي عقلائي الذوات القادرة على الكلام والفعل والتي يمكنها تصور، ما أمكن، الأفعال والعلاقات (أهداف - غايات) (...).كما نتحدث عن شكل غخر من التعبير العقلاني الذي لا ينتظر منه ،بالضرورة،تحقيق غاية ،كالتعبير الذي يأخذ صفة التقرير (...). . وأسمي عقلائي الأشخاص الذين يلتزمون بحدود معطاة ،والذين يمكنهم تبرير أفعالهم أمام النقد الذي يوجه لهم أثناء وضع معين .كما نسمي عقلائي كل من يعبر عن تمني أو إحساس عاطفي أو حالة فكرية ... (...). ونسمي عقلائي الشخص القادر ،داخل المجال الإدراكي - الأدواتي على التعبير عن آرائه وقدرته على الفعل بشكل جيد"²

الظاهر أن هابرماس أخرج مفهوم العقلانية من بعدها المتعالي ،والذي جعل من إنتاج الحقيقة معيارا لصدقها ، وجعل من مبادئ العقل الخالصة أداة لإنتاج هذه الحقيقة - هذا ما دافعت عنه الفلسفة - إلى مستوى آخر مرتبط باليومي المعيش للأشخاص أثناء عملية التواصل البيئذاتي ،والذي يأخذ من المعرفة الاجتماعية المشتركة مرجعية للتفاهم . وقد ربط هابرماس مفهوم العقلانية بالتواصل البيئذاتي الذي يروم التفاهم وفق إدعاءات الصلاحية بالقدرة على المحاجة .

وقد أخذت العقلانية التواصلية عند هابرماس خمسة أبعاد وزعها وفق طبيعة المرجعية المعتمدة للفعل التواصلي وأشكاله الحجاجية ،ووفق طبيعة التعبيرات الإشكالية ، وأيضا ، بالنظر إلى طبيعة إدعاءات الصلاحية . ومثل لها بالجدول التالي :

¹ - Ibid. .p. 31

² Ibid. p .31/32

المرجعيات	التعبيرات الإشكالية	إدعاءات الصلاحية
أشكال الحجاج	إدراكي-أداتي	حقيقة الافتراضات:فاعلية الأفعال الغائية
الخطاب النظري	أخلاق - عملي	صدق معايير الفعل
النقد الجمالي	تقييمي	توافقية القيم
النقد العلاجي	تعبيري	صدق التعبير
الخطاب التفسيري	البنىات الرمزية	فهم أو توافق

وسمى هذه الأبعاد المرجعية بالخطاب الحجاجي النظري والذي يعتمد فيه التعبيرات الإشكالية ذات الطابع الإدراكي - الأدوات ودواعي صلاحية ، تم أرجع الخطاب العملي الذي يهتم التعبيرات الإشكالية الأخلاقية العملية بدواعي صلاحية الانضباط لمعايير الفعل الأخلاقي ، كما تطرق للخطاب الجمالي والذي يتعلق بالتعبيرات الإشكالية المعيارية ذات البعد القيمي ، ثم الخطاب الطبي أو العلاجي وأخيرا الخطاب التعبيري .

يؤكد هابرماس على أن الحجاج أو المحاجة عنصرا أساسيا داخل العقل التواصلية ،وهنا يرفض هابرماس الحجاج الشكلي أو الصوري كما تواضع عليه المنطق الأرسطي ، لأنه يهتم بشكل المعرفة دون النظر إلى مضمونها ، الأمر الذي يعطي الأولوية للعقل الإدراكي بدل الاهتمام بالحجاج التواصلية . ويعرف الحجاج كالتالي " شكل الخطاب الذي يسعى فيه المتدخلون ، حول موضوع ما إلى اكتساب إدعاءات للصلاحية، والتي تكون موضوع خلاف .ويهدفون تبني هذه إدعاءات

للصلاحية انطلاقاً من أدوات حجاجية ". ويتابع تعريفه للحجة بكونها " تتضمن الأسباب والعلل ، التي ترتبط بشكل منظم إدعاءات صلاحية تعبيرات إشكالية"¹ . وتأتي قوة الحجة انطلاقاً من قدرتها على إقناع المشاركين في الحوار ، ودفعهم إلى تبني إدعاءات صلاحية ما . من هنا يمكن الحكم على ذات قادرة على الكلام والفعل ، والتصرف باعتبارها مشاركة في الحوار وفق بعد حجاجي . تبين المشاركة في العملية الحجاجية مدى الحضور العقلاني أو غيابه ، وذلك بالكيفية التي يتعامل معها المشارك بالأسباب التي تؤكد أو تنفي إدعاءات الصلاحية ، وأيضاً بالطريقة التي يرد بها على هذه الأسباب ، " فإذا كان المشارك في الحوار منفتحاً على الحجاج عارفاً بقوة الأسباب المقترحة ، أو أوله القدرة على الاحتجاج عليها ، في كل هذه الحالات يمكن اعتبار كيفية مشاركته عقلانية . وإذا كان لا يستجيب للحجاج ، إما لتجاهله الأسباب التي تقدم من أجل إثبات إدعاء الصلاحية ، أو يرد بشكل دوغمائي ، فهذا يعني أنه لا يتعامل مع الإشكال المطروح بشكل عقلاني ."²

بعد هذا التعريف الأولي لطبيعة الحجاج ، كقاعدة مرجعية لقياس العقلانية التواصلية. يطرح هابرماس تصور كل من w.klein و Toulmin لنظرية الحجاج . ويدون أن ندخل في تفاصيل تصور كل منهما ، والنقد الذي قدمه هابرماس لنظريتهما ، ننتين موقفه من الحجاج . فما يبحث عنه هو التأكيد على الطابع الكوني للحجة ، فالحجة لا تختلف باختلاف التغييرات الخارجية أو الداخلية للمضمون الذي وردت فيه الحجة ، فقوة الحجة تكمن أساساً في طرح نظام إدعاء الصلاحية ، وفي مثل هذا النظام لا تكون نظرية الحجاج في حاجة إلى استنباط شبيه بالاستنباط الترنسندنتالي ، وإنما تحتاج فقط لسيرورة مؤكدة للتحقق من فرضيات بناء متطابقة"³ ترتبط النظرية الحجاجية ، إذن ، بدعوى الصلاحية القائمة على قاعدة تواصلية لغوية ، وقوة الحجة لا تكمن في طبيعتها الصورية أو الشكلية أو منطقتها المتعالي ، بقدر ما تكمن في سيرورة بنائها من طرف المتكلم وإقناع المستمع بها. لكن يجب

¹ Ibid. p .34

² . Ibid, p.34

³ . Ibid, p.54

التنبية إلى أن هذا الشكل من الحجاج يفقد فعاليته في ما يخص المواضيع الإشكالية المتعلقة بالذوق، والقيم الثقافية، والاعتقادات، فقوة الحجاج العقلاني ذو الطبيعة التواصلية تكمن أساسا في كونه يكتسب معيارا كونيا .

إن ربط الحجاج بمفهوم العقلانية أخذ بعد مركزيا داخل الفعل التواصلية مادام الأمر يتعلق إدعاء إصلاحية. لهذا ركز هابرماس على تشكيل الفعل التواصلية وفق تصور لغوي يهدف إلى تحقيق التفاهم .

2. الفعل التواصلية :

لقد انخرط هابرماس في الموضوعة الرئيسية للفلسفة الحديثة، ونعي بها مفهوم العقلانية، لكن سؤال هابرماس عمل على تحيين المقاربة الفلسفية لمفهوم العقلانية، من خلال الإجابة عن السؤال التالي: " إذ كيف نحافظ على وحدة العقل داخل عالم عرف التعدد؟". وإذا كان بهذا السؤال قد التزم " الخط" النقدي للعقل، والذي دشنته الفلسفة النقدية منذ كانط، فإنه حاول " انقاذ وحدة العقل" من جهة " والحفاظ على تعدد مساراته من جهة أخرى، وذلك بطرحه لمفهوم " عقلانية فعلية" تكمن في القدرة التي تكون للأشخاص المسؤولين والمشاركين في تفاعل تواصلية، ومناقشة تطلب الصلاحية وإلى توجيههم نحو الاعتراف البينداتي " ¹.

وإذا كان إدعاء الصلاحية يشكل مرجعا لكل مناقشة، يكون هابرماس قد أسس "لمفهوم العقلانية" في بعدها التواصلية، والمبني على التفاهم البينداتي المفارق للنزعة المركزية للذات الفردية، دون أن ننسى أن خطاب هذه العقلانية قد تراوح بين الأبعاد الإدراكية، والجمالية، والأخلاقية، والتعبيرية.

يؤكد هابرماس أن مفهوم ' عقلاني' كان بمثابة "خيطة ناظم" من أجل توضيح الشروط التي تقوم عليها "العقلانية"، بمعنى الكيفية التي يكون بها الأشخاص قادرين على الكلام والفعل . وعندما يتم الحديث عن عقلانية القول والفعل، فإننا نتحدث عن عقلانية "سلوك العيش" الذي يكون ضمن شروط سوسيو- ثقافية تعكس عقلانية "عالم معيش" مشترك ليس بين الأفراد فقط، وإنما بين المجموعات أيضا.

¹ Vandenberghe (F) : « une histoire critique de la sociologie Allemande . Aliénation et réification». Les Éditions La Découverte, 1997 .p.251

يؤكد هابرماس على دور الفلسفة والعلوم الاجتماعية في بلورة مفهوم العقلانية، فقد تشكل هذا المفهوم مع فلسفة "نقد العقل" في الفكر الحديث التي دشنها كانط أثناء تعيينه مبادئ العقل النظري والعملي ، وعمل ماكس فيبر على منح مفهوم العقلانية بعدا جديدا في العلوم الاجتماعية ، بحيث نظر لفعل العقل على أنه موجه نحو النجاح ، وتحقيق الغاية القائمة على النشاط الأداتي .وبذلك تكون "نظرية المجتمع عند فيبر قد اعتمدت وتبنت مفاهيم أساسية للأنشطة العقلانية (...). وجعلت مفهوم النشاط العقلاني يحيل ،بالضرورة، إلى مقولات عملية منظمة اجتماعيا"¹.

غير أن هابرماس نحت مفهوم العقلانية بالشكل الذي يمنحه بعدا آخر مؤسس على النشاط التواصلي ،معتمدا مقارنة التداوليات الصورية ،ويشير إلا أن هذا النشاط التواصلي يقوم على أساس اللغة، يقول: "إن مفهوم العقلانية التواصلية يحتاج إلى تفسير أكثر دقة ،وسأقوم بهذا العمل بشكل غير مباشر، أي انطلاقا من توضيح التداولية الصورية لمفهوم النشاط التواصلي (...). ويمكن أن نبدأ بالقول أن تحليل مفهوم العقلانية التواصلية يجب أن يسير وفق خيط ناظم للتوافق اللغوي"². يظهر أن البناء النظري لهابرماس يقوم على أساس مقولة التواصل، والبحث عن آليات تفاهم ممكن. فنظرية الفعل التواصلي تتجه بالدرجة الأولى إلى البحث عن شروط مجتمع ممكن يتحقق فيه التفاهم. فهي نظرية تهتم بما يتشكل من تفاعلات اجتماعية بين الأفراد الذين يتواصلون من أجل بناء وتحقيق مشروع ممكن ،وفق إمكانات التنسيق بينهما وترتيب شؤونهما، يقول: " إن مفهوم التفاهم يحيل على توافق عقلاي مبرر بين المشاركين. هذا التوافق يقاس وفق افتراضات نقدية للصلاحيية. تتحدد افتراضات الصلاحيية، هذه ،وفق أنواع مختلفة لمعرفة كامنة رمزيا داخل التعبيرات والألفاظ"³.

و يمكن القول أن قوة النظرية التواصلية الذي أسسها هابرماس تعود بالأساس إلى طبيعة المفاهيم التي أبدعها لتأثيره حول الفعل التواصلي ،منها

¹ .نور الدين أفاية ، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة: نموذج هابرماس، دار إفريقيا للنشر، المغرب، ط1، 1919، ص.179

² . Habermas (j) : « théorie de l'agri » ,op cit.,pp.90-91

³ . Ibid, p.91.

مفهوم "العقل التواصلي" ، والذي يشكل النواة الصلبة لهذه النظرية ،ومجموعة من المفاهيم المكملة ،كمفهوم النشاط التواصلي ،ومفاهيم الفعل التواصلي ،والفعل الغائي ،والفعل التمثيلي ،ومفهوم العالم المعيش...الخ .عرض هابرماس هذه المفاهيم في مؤلفه الضخم "نظرية الفعل التواصلي" وقد عاود التعريف بها ،بعد الانتقادات التي وجهت إليه في كتابه "منطق العلوم الاجتماعية" .وقد اعتمدنا في هذا الفصل المقاربة المفاهيمية باعتبارها المفتاح لقراءة نظرية الفعل التواصلي من خلال هذين الكتابين .

من بين أهم المفاهيم المؤسسة لنظرية الفعل التواصلي نجد مفهوم " النشاط الاجتماعي" ،الذي منحه هابرماس أهمية قصوى ،لأنه يؤثر إشكاليته المركزية ضمن تصورعام للنشاط التواصلي ذو الطبيعة الاجتماعية، ومن تم انطلق من الأسئلة التالية : " كيف يكون النشاط الاجتماعي ممكنا ؟ وبمعنى آخر،كيف يكون النظام الاجتماعي ممكنا لتحقيق الاندماج بين الفاعلين في المجتمع ؟.

تعتبر هذه الأسئلة التي صاغها هابرماس،الموجه لبحثه والأسس المعيارية التي صاغ بها مكونات "نظرية الفعل التواصلي". ويشترط بأن " كل نظرية للفعل تريد أن تكون مؤهلة للإجابة عن هذه الأسئلة، يجب عليها أن تكون قادرة على تعيين الشروط التي يكون فيها الآخر قد "ربط " أفعاله مع أفعال الأنا. فالنظرية السوسيولوجية للفعل لا تهتم بالخصائص الشكلية للنشاط الاجتماعي فقط، وإنما تهتم بميكانيزمات التنسيق بين الأفعال والممارسات التي تساعد على الربط المتواصل والقار بين مختلف أشكال التفاعلات. فتشكيل نماذج التفاعل يفترض بأن تعاقب الأفعال المكون من طرف مختلف الفاعلين لا يتوقف بشكل حدسي ،وإنما يكون منسقا حسب مجموعة من القواعد، هذا الشرط ينطبق على السلوك الاستراتيجي، كما ينطبق على السلوك التعاوني".¹

وقد أشار هابرماس إلى المقاربات الفكرية التي اهتمت بنظرية الفعل: النظرية السوسيولوجية للفعل ،والنظرية الفلسفية، ويرى أن النظرية الفلسفية لم تعد قادرة على إحداث تصور واضح لمفهوم الفعل الاجتماعي، لتبقى النظرية

¹ .Habermas(J) : « logique des sciences sociales », Tr. Rochlitz(R), Paris,PUF ?1987.P.413

السوسيولوجية المؤهلة لبناء تصور أساسي لهذا للفعل، حيث "أن النظرية السوسيولوجية للفعل تفترض ما تجعل منه النظرية الفلسفية للفعل موضوعا، وخاصة تفسير البنية الخاصة للفعل الغائي، بالإضافة إلى هذا، لا تهتم النظرية السوسيولوجية للفعل بالمشاكل الأساسية مثل: إرادة الحرية والعلاقة بين الروح والجسد والقصدية. إن هذه المواضيع من اختصاص الانطولوجيا والابستيمولوجيا ونظرية اللغة وكذلك النظرية الفلسفية للفعل، وأخيرا، إلزامية تفسير النظام الاجتماعي البيذاتي دفعت بالنظرية السوسيولوجية للفعل إلى الابتعاد عن المبادئ الخاصة لفلسفة الوعي"²

ينتصر هابرماس، بهذا المعنى، للنظرية السوسيولوجية للفعل الاجتماعي على حساب النظرية الفلسفية للوعي. يبقى عليه الانخراط في توضيح مكونات التواصل ذو الطابع الاجتماعي، هذا ما أعلنه حينما قال: "سأتناول من جهة، مسألة الروابط الموجودة - من وجهة النظرية الاجتماعية- بين المفاهيم المؤسسة " للنشاط الاستراتيجي" و" النشاط التواصللي"، ومن جهة أخرى مفاهيم "النظام" و "العالم المعيش"³.

وإذا ما حولنا تعريف مفهوم الفعل، فإن هابرماس يحدده "باعتباره تحقيقا لمشروع عملي مؤسس على تأويل وضعية، أثناء تحقيقنا لمشروع عملي ما، فإن الفاعل يكون قد تحكم في الوضعية. ووضعية الفعل هذا تشكل جزءا من محيط الفاعل. وهذا الجزء يتكون في ضوء إمكانيات الفعل ذات الدلالة بالنسبة للمشروع العملي والمدرج باعتباره كذلك من طرف الفاعل. الفعل بهذا المعنى، لا يقف عند حدود الذات، بل يفترض نوعا من التقارب بين مختلف الذات الفاعلة، ولهذا اقترحت النظريات السوسيولوجية للفعل ضرورة وجود معرفة تقاربية أو مشتركة بين المتحاورين، أي وجود تقاطعات كافية على مستوى التأويلات الممكنة للوضعية ومن أجل تحقيق هذه الغاية، يطرح هابرماس التواصل بواسطة اللغة كمكون أساسي لتبادل المعلومات بين الأطراف الفاعلين داخل الوضعية.

² . Ibid, p.413

³ .. Ibid, p.415

ومن أجل تحديد الآليات التي يعتمدها الفاعلون لخلق تنسيق بين الأفعال، فإنهم يمنحون أولوية لما يسميه هابرماس "التوافق" أي "معرفة مشتركة" أو على الأقل "تأثير" خارجي تمارسه الأطراف الفاعلة فيما بينها. إن شرط المعرفة المشتركة بين الذات الفاعلة والمتكلمة أساسي، لتحقيق التفاهم، "أتحدث عن المعرفة المشتركة، عندما تكون مكون لاتفاق ما - وهذا الاتفاق يتحدد بالاعتراف البينداتي لادعاءات الصلاحية، والقابلة لأن تكون موضوع نقد- ويعني التوافق قبول الأطراف المعنية لصلاحية معرفة ما، بمعنى القدرة على الإلزام البينداتي"¹. فالمعرفة المشتركة تقوم بوظيفة التنسيق بين الأفعال مادامت تتمتع بالقدرة على تضمين عناصر أو تفسيرات دالة تمكن من استمرارية التفاعلات.

تحمل، إذن، الأطراف المتفاعلة فيما بينها، داخل وضعية معينة، قناعات متفق عليها بينذاتيا، وتشكل نوعا من الانتظام المتبادل بينها باعتبارها أطراف متساوية في الوضعية. وتتشكل، لدى المشاركين في الفعل، "قناعات بينذاتية، وقناعات ذاتية، تكون القناعات البينداتية مشتركة بشكل تعاقدية متبادل بين المشاركين في الحوار وهذه القناعات الذاتية (المونولوجية)، تكون بحسب ما يعتبره كل واحد في داخله صحيحا أو خاطئا، لا يمكن أن تؤثر إلا على المواقف الفردية"² وما يأخذ بعين الإعتبار هنا، هو مدى التأثير الذي يمارسه أحد الأطراف على الطرف المقابل.

يعتبر إذن، هابرماس التأثير والاتفاق آليات أو ميكانيزمات لتنسيق الفعل و يستحيل الدخول في سيرورة تفاهمية، بهدف الوصول إلى اتفاق مع مشارك ما، وفي نفس الوقت ممارسة التأثير عليه، أي لا يمكن حصول الاتفاق مع التصور بالتأثير المفروض، فلا حصول للإجماع إلا على أساس الاتفاق البينداتي، دون تأثير ضاغط.

¹ . Ibid, p.416

² . Ibid, p.417

ينتهي هابرماس، في مقارنته للفعل الاجتماعي، إلى كون "الموقف التفاهمي يولد تداخل بين المشاركين في التفاعل، لأنهم لا يستطيعون تحقيق الإجماع إلا على أساس الاعتراف البيئذاتي لادعاءات الصلاحية"¹.

إذا ما اعتمد هابرماس الطرح السوسيولوجي للفعل، فهو يطرح هذا الفعل ليس على أساس أنطولوجي خالص، وإنما على أساس العلاقة بين الفاعل والعالم، والذي يرتبط بأشكال العقلانية الممكنة للفعل . وبرجوع هابرماس إلى المفاهيم المحكمة داخل نظريات العلوم الاجتماعية يجدها تقوم على أربعة مفاهيم أساسية، والتي يمكن التمييز بينها على مستوى التحليل، وبهذا يحدد أنماط الفعل الاجتماعي في :

مفهوم الفعل الغائي (Téléologique) ، والذي يوجد منذ أرسطو في قلب فلسفة الفعل. ويعرف هابرماس الفعل الغائي عندما "يحقق الفاعل هدفاً أو يسعى إلى إظهار حالة يتمناها، باختياره واستعماله بشكل أولي، الوسائل التي يظهر له في وضعية معينة، أنها قادرة على ضمان النجاح. فالمفهوم المركزي هو القرار المتخذ بين تعاقبات الفعل، ويكون قرار موجه نحو تحقيق غاية، متحكم فيه عملياً، ومدعوماً بتأويل للوضعية"²، وبمعنى آخر، " فإن الفاعل يحقق غايته أو يخلق شروط حالة فعل يتمناها، باختياره الوسائل التي تسمح له، في وضعية معينة، بتحقيق النجاح. فالعنصر المركزي (هنا) هو المشروع العملي المؤسس على تأويل معين للوضعية، والهادف إلى تحقيق غاية (...). وهذه البنية الغائية هي بنية تكوينية بالنسبة لكل مفاهيم النشاط، ولكننا نميز مختلف مفاهيم النشاط الاجتماعي بالقياس إلى طريهما في التنسيق بين الأفعال"³.

لكن يمكن لهذا الفعل الغائي أن يتحول أو يمتد إلى فعل استراتيجي، وذلك "عندما يأخذ في حسابه قرار الفاعلين الآخرين، أو على الأقل واحداً منهم، والذي يفعل بالنظر إلى غاية يريد الوصول إليها. وهذا النموذج غالباً ما يؤول وفق ما معنى نفعي. فنفترض أن الفاعل يختار بحسب الوسائل والغايات وفق منظور

¹ . Habermas (J) : « logique des sciences sociales », Ed , P.U.F 1987.418

² . Habermas (j) : « théorie de l'agri » ,op cit..p.101.

³ .Habermas (J) : « logique des sciences sociales », op .cit, p.417.

المنفعة القصوى أو المنفعة المنتظرة"¹. يظهر أن هذا النموذج يميل إلى " النظام الإداري"، أي أنه يختزل التوجيهات العملية في المنافسة من أجل المال أو السلطة، ويكون التنسيق بين القرارات بحسب وسائل العلاقات الخاصة أو بمنطق السوق، أو وفق منطق الاحتواء. سواء اعتمد على منطق السوق أو على منطق السياسة، فإنه يشكل نظاما أداتيا، لأنه لا يتعامل مع الذات والأشخاص، ولا يبني علاقاته إلا من زاوية اعتبارا لمشاركين في التفاعل أدوات بعضهم لبعض بهدف النجاح"².

تكمن القيمة، هنا، في تمثل المنفعة، أي أن المشاركين في التبادل يأخذون بعين الاعتبار التأثيرات الممكنة في الاختيارات المتبادلة للعروض، والمردودية تتحدد في قياس النجاح، دون اعتبار التعاون المفترض في النشاط التواصلي. فالتفاعل القائم على المال كوسيط ينتهي إلى مبدأ نشاط استراتيجي يتحقق في السوق. لكن وبشكل عام، فإن التفاعلات الاستراتيجية تفهم، هي كذلك بوصفها تفاعلات معبرا عنها بواسطة اللغة، ولكن داخل هذا النموذج، تكون الأفعال الكلامية مماثلة الأفعال الهادفة لتحقيق النجاح، لأن الذات الفاعلة في النموذج الاستراتيجي والتي تبحث لنفسها عن تحقيق الفعل، تلجأ إلى التواصل عبر اللغة، كوسيلة من بين باقي الوسائل. وقبل أن يحدد هابرماس مفهوم النشاط غير الاستراتيجي، على اعتبار الاستعمال التفاهمي، طرح مفهوم الفعل المنظم بواسطة معايير.

يقصد هابرماس بمفهوم "الفعل المنظم بواسطة معايير" ليس سلوك الفاعل الفردي، والذي يجد فاعلين آخرين داخل مجاله، وإنما يهتم على العكس بأعضاء مجموعة اجتماعية تقوم بتوجيه فعلها وفق معايير مشتركة. فالفاعل الفردي يتبع معيار كلما وجد نفسه في وضعية تسمح بوضع شروط تقبل بتحقيق المعايير داخلها"¹. فكل أعضاء المجموعة يلتزمون بالمعايير المشتركة إذا كانت الوضعية تسمح بتطبيقها، أي أنهم يميزون بين الوسائل والشروط التي تنظم الحقوق والواجبات. إن نموذج النشاط المنظم بواسطة معايير يفترض في الفاعلين اتخاذ

¹. Habermas (j) : « théorie de l'agri » ,op cit.p.101.

². Habermas (J) : « logique des sciences sociales », op .cit, p.419.

¹. Habermas (j) : « théorie de l'agri » ,op cit.p.101.

موقف مطابق للمعايير، باعتبارهم معروضون للتساؤل وفق هذا المعيار. ليبقى معنى "الخضوع" واردا هنا، أي أن الفاعل يقوم بسلوك وفق ما ينتظر منه، ويأخذ هذا لسلوك طابعا معياريا وليس إدراكيا، أي يحمل طابع التبدير من طرف أعضاء المجموعة، وهذا النموذج المعياري للفعل هو الأساس الذي تقوم عليه نظرية الأدوار.

إن الفعل المنظم بواسطة معايير يفترض علاقة بين الفاعل وعالمين : العالم الموضوعي والعالم الاجتماعي، باعتبار الفاعل ذات تلعب دورا داخل العالم الاجتماعي، وبإمكان كل الفاعلين أن يقوموا بأدوار تفاعلية محددة وفق معايير، فالعالم الاجتماعي، هنا يكون نسقا مرجعيا للعلاقات البيئذاتية، ويمكن للفاعلين أن يتحكموا في هذه العلاقات البيئذاتية بواسطة اللغة، ويوظفونها من أجل إقرار عملية التفاهم . أما نموذج النشاط غير الاستراتيجي، وانطلاقا من العناصر الأساسية للتنسيق بين الأفعال " يفترض استعمال تفاهمي بواسطة اللغة"².

يقترح هابرماس، مفهوما ثالثا، ويصطلح عليه باسم " النشاط التمثيلي أو المسرحي"، وهذا النشاط لا يهتم بالفاعل الفردي، ولا يهتم أيضا، بأعضاء مجموعة ذات طابع اجتماعي، وإنما يهتم مجموعة من المشاركين في التفاعل والذي يمثل كل واحد منهم، بالنسبة للآخر، جمهورا، وعليه أن يقوم أمامهم بمسرحة فعله"¹، ومعنى هذا القول أن الفاعل يسعى إلى بناء تصور حول شخصية لذي الجمهور، أو ترك انطباع لديهم عن شخصيته. ويكون الفاعل متحكما بشكل أو بآخر، في ما يريد تركه لدى الجمهور من انفعال أوأمني ، أو مواقف. فيكون الفاعل وحده قادرا على نقل تصوراته الذاتية وتمثيلها لدى الجمهور. "وداخل هذا النموذج نستعمل الوصف الفينومينولوجي للتفاعلات"². فعندما نأخذ بعين الاعتبار التفاعل الاجتماعي نذكر، من وجهة نظر الفعل التمثيلي ، ما يمثله المشارك في الحوار بالنسبة للآخر ، وكيف يكون بالنسبة له جمهورا .فكل مشارك يقدم شيئا ما من ذاته ويتمنى أن يراه الآخر ويقبل به ، وكأنه يمثل جمهورا بالنسبة له .

² . Habemas (J) : « logique des sciences sociales », op .cit, p.421

¹ .Habemas (J) : « logique des sciences sociales », op .cit, p.422

² .Ibid, p422.

يستطيع الفرد أن يرى ذاته أثناء قيامه بفعل تمثيلي ، فالفاعل ، هنا ، يرجع الى عالمه الذاتي . ويعرف هابرماس العالم الذاتي بكونه "مجموع التجارب التي عاشها الفرد ذاتيا ، والتي يسمح للآخرين بالاطلاع عليها " .³

يؤكد هابرماس على الترابط القائم بين هذه النماذج الثلاث للفعل الاجتماعي باللغة الكلامية باللغة، داخل هذه النماذج المذكورة (الفعل الغائي، والفعل المنظم وفق معايير، والفعل التمثيلي) ، بعدا ذو اتجاه واحد . ف نموذج الفعل الغائي يستعين بالكلام كوسيط من بين باقي الوسائط المتاحة له، إذا ما رأى أن الكلام يمكنه من تحقيق الغاية التي يسعى إليها . ويمكن القول أن الكلام ينحصر في التفاعل المباشر . أما نموذج الفعل المنظم وفق معايير فيستعمل الكلام لنقل القيم الثقافية ، ويسعى إلى تحقيق نوعا من الإجماع الذي يتجلى في كل تفاعل جديد . ويستدعي نموذج الفعل التمثيلي الكلام كوسيط مسرحي من خلاله ينقل الفاعل ما يريد التعبير عنه .

يعتقد هابرماس أن الفعل التواصلي وحده يفترض الكلام كوسيط للتفاهم غير المبتور ، والذي من خلاله ينطلق المتكلم من العالم المعيش المؤول ويحمل شيئا ما الى العالم الموضوعي من جهة ، والعالم الاجتماعي والذاتي من جهة أخرى . وبواسطة الفعل التواصلي يتحقق التفاوض حول تعاريف مشتركة .

يطرح هابرماس، إذن، الفعل التواصلي والذي فرض ذاته بطبيعة الوسيط اللغوي الذي أصبح يشكل رابطة قوية بين الفاعل والعالم . وتطور هابرماس لمفهوم الفعل التواصلي جاء تجاوزا للنقص الذي عرفته التصورات الفلسفية ، والتي ركزت اهتمامها على موضوع الذات و الوعي ، وأيضا، المقاربة أحادية الجانب الذي تميزت بها العلوم الاجتماعية والتي اتخذت الفعل الاجتماعي موضوعا لها ، دون أن تنتبه لأهمية الفعل التواصلي ، إذ صرح أن نحت هذا المفهوم جاء كضرورة لبناء نظرية تواصلية" لقد صورت مفهومي الفعل التواصلي والعالم المعيش بصفة حدسية انطلاقا من سياق المناقشات السوسولوجية"¹.

³ . Habermas (j) : « théorie de l'agri » ,op cit..p.111

¹ . Habermas (j) : « théorie de l'agri » ,op cit..p.10

إن المنعطف اللغوي الذي ميز نظرية الفعل التواصلي عند هابرماس جعله يطرح اللغة الكلامية كمكون أساسي داخل الفعل الاجتماعي . وقد وظف البعد اللغوي لتعزيز الفعل التواصلي من أجل الكشف أكثر عن طبيعة العلاقات الاجتماعية وكيفية تنظيمها. وبهذا يتميز الفعل التواصلي عن نماذج الأفعال الأخرى ، لان الهدف من الفعل التواصلي ، ليس التأثير على الآخر ، بل السعي لإقامة تفاهم ممكن معه ، وبناء اتفاق متبادل معه، باعتباره مشاركا في عملية التواصل .

3.العالم المعيش

لجأ هابرماس إلى تأنيث نظرية الفعل التواصلي بمجموعة من المفاهيم يرى فيها لبنات أساسية لتكملة مفهوم الفعل التواصلي، من بين هذه المفاهيم يطرح مفهوم " العالم المعيش"، ويعتبر هابرماس هذا المفهوم مكملا لمفهوم الفعل التواصلي ، ويعرفه بالشكل التالي : " أريد هنا أن أقدم لمفهوم العالم المعيش، فأستحضره، بداية كسيرورة نحو التفاهم . فالذوات الفاعلة بشكل تواصلي تسعى إلى التفاهم في أفق العالم المعيش. فهي تقوم ببناء عالمها المعيش انطلاقا من حقيقة تتفق حولها ، ولا تشكل بالنسبة إليها إشكالا.وتصلح خلفية العالم المعيش هذه كمرجع يقوم بتحديد الوضعيات بصفة غير إشكالية بالنسبة للمشاركين "¹. يفترض ،إذن، العالم المعيش مشاركة مجموعة من الفاعلين بشكل تواصلي لغوي، ويهدف هؤلاء المشاركون إلى تحقيق تفاهم انطلاقا من وضعياتهم ، هذا التفاهم الذي لا يخلو من توجيه انتقادات حول إدعاءات الصلاحية المقترحة.

يقوم هابرماس بوضع مجموعة من المقاربات، التي من خلالها منح تفسير لمفهوم العالم المعيش، وما يهمنها منها : الكيفية التي تسلك فيها الذوات الفاعلة أمام العوالم الثلاث -(العالم الموضوعي، العالم الاجتماع ، والعالم الذاتي)- في توجيهها نحو التفاهم، منطلقة من قاعدة تعريف مشترك لوضعيتها.

لقد ميز هابرماس أثناء تحديده الافتراضات الانطولوجية للفعل التواصلي بين ثلاث أشكال : الفعل الغائي ،و الفعل المنظم وفق معايير ، والفعل التمثيلي. ثلاث علاقات مختلفة للفاعل -العالم، بالنسبة للذات أمام شيء موضوعي موجود

¹ . Ibid, p86.

في العالم، وأمام شيء في العالم الاجتماعي المشترك بين كل أعضاء الجماعة، وأمام شيء يكون ذاتي بالنسبة للمتكلم، ويشكل بالنسبة إليه امتيازاً . هذه العلاقات "الفاعل - العالم" تقود إلى أشكال محض خالصة للفعل التواصلي الموجه نحو التفاهم. ويمكن، بعودتنا إلى الاستعمال اللغوي، أن نفسر الكيفية التي يطور من خلالها المتكلم أفعاله اللغوية، والتي يجعلها تتكيف مع المواقف النفعية.

- اتجاه شيء ينتمي لعالم موضوعي (باعتباره مجموعة من الكيانات تقع خارج ذات الفاعل)

- اتجاه شيء ينتمي لعالم اجتماعي (باعتباره مجموعة من العلاقات البيئذاتية مؤسسة على قواعد مشروعة).

- اتجاه شيء ينتمي إلى عالم ذاتي (باعتباره مجموعة من الأحداث التي عاشها المتكلم، ويكون له الامتياز في التعبير عنها بشكل صادق أمام الجمهور).
إن الأشكال الخالصة للفعل المتجه نحو التفاهم تمثل حالة محدودة. " حقيقة الإثباتات القولية تكون دائماً مترامنة التركيب داخل مختلف الترابطات للعالم. فالعقل التواصلي يقوم على أساس سيرورة التفاهم المشترك، إذ أن المشاركين يعودون في نفس الوقت لشيء ينتمي إلى العالم الموضوعي، والعالم الاجتماعي، والعالم الذاتي، رغم أنهم في لا يتقدمون موضوعاتياً فيما يتعلق بمنطوقهم، إلا من خلال التركيبات الثلاثة للعالم. ومن تم يستعمل المتكلم والمستمع العوالم الثلاثة كنظام مرجعي وإطار للتفاهم، العوالم الثلاثة التي من خلاله ينشئون تعريفات مشتركة لوضعية الفعل".¹

يعود هابرماس لتعريف التفاهم بكونه "اتفاق الذوات المشاركة في عملية التواصل حول صلاحية تعابيرها، وتعترف ذواتياً بإدعاءات الصلاحية التي تعلن عنها بشكل متبادل. فالفاعل حين يصوغ تعبيراً ما أو يقوم بتدخل ما فهو يرجع، بطريقة أو بأخرى، إلى عالم محدد العوالم الثلاثة وبالتالي فإن تعبيره أو تدخله يكون قابلاً للنقد. وهكذا فإن مفهوم النشاط التواصلي يفترض اللغة باعتبارها وساطة من أجل عمليات التفاهم ضمن طبيعة خاصة، أي عمليات يتم فيها الإعلان على ادعاءات الصلاحية من طرف الأطراف المعنية والتي يمكن أن تقبل أو ترفض".²

¹ . Ibid.p ,133.

² نور الدين أفاية مرجع سابق ، ص.191.

إن الأطراف المشاركة في التفاعل تسعى إلى حشد كل إمكانياتها من أجل التفاهم ، بهدف تحقيق الإجماع، و عليهما من أجل تحقيق هذا الإجماع أن تحترم صدق إداعات الصلاحية التي تعبر عنها، إذ لا تتوقف الغاية عن التفاهم والاتفاق حول صلاحية التعابير والألفاظ فقط، وإنما تتجاوز ذلك إلى الهدف منه هو الاتفاق في ما بعد حول المعايير الاجتماعية والأخلاقية التي تحكم المجتمع، لأن اللغة وسيلة لنقل المعلومات، لكنها أيضا وسيلة لتأسيس ارتباطات الواقع الاجتماعي .

يشكل الإجماع غاية ومقصد التفاهم، فغياب الإجماع بين المشاركين في عملية التواصل يعني فشل العملية، ومن أجل تحصيل هذا الإجماع لا بد من شروط أهمها: الاعتراف البيّناتّي بين الذات المشاركة في النشاط التواصلي في إدعاءات الصلاحية، ولكي تدعم كل ذات مشاركة في التواصل ادعاءاتها للصلاحية فإنها تستند الى الحجج والبرهان. ففي إطار سيرورة مناقشة عقلانية، الغلبة تكون لمن يملك صدق دعواه بالبرهان واستعمال الحجج، لكن لا ينبغي هابرماس إمكانيات التنازع والاختلاف، فالعقل التواصلي يؤمن بأنكون الحقيقة مرتبطة بالسيرورة اللغوية ذات البعد التواصلي، وأنها تنبعث من داخل محادثات الذات المنتجة للتواصل .

ويمكن أن نشير إلى بعض المفاهيم المؤسسة للعالم المعيش، والتي يعتبرها هابرماس بمثابة المكونات البنيوية للعالم المعيش. ونقصد بها مفهوم الثقافة، والمجتمع والشخصية.

يعرف هابرماس الثقافة كالتالي: "من المنظور الوظيفي للتفاهم، يهدف الفعل التواصلي إلى نقل وتجديد المعرفة الثقافية، ومن منظور تنسيق الفعل، يهدف التفاهم إلى الاندماج الاجتماعي وتثبيت التكافل الاجتماعي، ومن منظور التنشئة الاجتماعية، يهدف الفعل التواصلي إلى تشكيل الهويات الشخصية"¹. إن البنّيات الرمزية للعالم المعيش تنشأ نتيجة الاستعمال المستمر للمعرفة المتفق حولها، ونتيجة ترسيخ التكافل بين أعضاء المجموعة، كما أنها تنشأ نتيجة لتكوين فاعلين قادرين على تحمل مسؤولياتهم.

¹ . Habermas (j) : « théorie de l'agiri »,Tr. (J) Schlegel,Tom2,ed. Fayard,Paris,1987,p.152

يضيف هابرماس بأن الثقافة " هي ذلك المخزون المعرفي الذي يستمد منه المشاركون في التواصل تأويلاتهم أثناء عملية التفاهم حول بعض الأشياء التي تنتمي إلى العالم"².

ويعرف المجتمع بكونه تلك "الضوابط المشروعة التي ينظم بها المشاركون في التواصل ، انتماءاتهم إلى مجموعات اجتماعية ،ويدعمون بها تضامنهم، كما يعرف الشخص ب" تلك القدرات التي بفضلها تكتسب ذات ما القدرة على الكلام والفعل، والقدرة على الانضمام إلى سيرورات التفاهم ،وبالتالي ترسيخ الهوية الشخصية. فالحقل السيميائي للمضامين الرمزية ، والفضاء الاجتماعي ،والزمن التاريخي، يشكل الأبعاد التي من خلالها تتطور الأفعال التواصلية، في حين ان التفاعلات التي تتيح شبكة الممارسة التواصلية اليومية تشكل الوسط الذي يتم فيه إعادة إنتاج الثقافة والمجتمع والشخصية"³

يعين هابرماس، بعد تعريفه الإجرائي لمفاهيم الثقافة، والمجتمع ، والشخصية ،العلاقات القائمة بين هذه المفاهيم ، وأيضاً الاختلافات الممكنة بينهما، فما بين الثقافة والمجتمع يبرز نوع من الاختلاف البنوي نتيجة لفصل بين نظام المؤسسات وتمثل العالم.

وإذا ما رجعنا إلى توضيح الوظيفة التي يقوم بها الفعل التواصلية من أجل العالم المعيش، يمكن استخلاص عملية إنتاج ثقافة العالم المعيش باعتبارها سيرورة تظهر فيها الثقافة والمجتمع والشخصية "كوسيط" و"نتيجة" للتفاعل. فالتقاليد الثقافية، والتكافل الاجتماعي والكفايات الشخصية لاتغذي الفعل التواصلية فقط، بل تتغذى منه في نفس الوقت : " يظهر الفعل ، أو التحكم في الوضعية، كسيرورة دائرية يكون فيها الفاعل مبادراً لأي فعل من جهة، وإنتاجاً للتقاليد الذي ينخرط فيها ،أي يكون إنتاجاً للمجموعة المتلاحمة التي ينتمي إليها، وإنتاجاً لسيرورة التنشئة الاجتماعية وعملية التعلم التي يتلقاها"¹. ستسمح هذه السيرورة الدائرية التي يلتقي

² . Ibid.p. 152

³ . Ibid.p. 152

¹ . Ibid.p.148

عبرها العالم المعيش بالأفعال التواصلية اليومية ، بإمكانية إنتاج تقني للعالم المعيش باعتباره سيرورة عقلانية .

عمل هابرماس، من أجل عقلنة المكون التواصلية للعالم المعيش ، على استحضار مفهوم العقلانية، كما طرحه في مقدمة كتابه " نظرية الفعل التواصلية " ؛ "إذ داخل عالم معيش عقلائي، تكون وظائف إعادة إنتاج الثقافة، والاندماج الاجتماعي، والتنشئة الاجتماعية تتحقق بفضل اللغة"¹ ، بهذا حاول هابرماس أن يرفع المستويات المؤسسة للعالم المعيش (الثقافة ، المجتمع ، الشخصية) إلى مستوى العقلانية .

يمكن للثقافة أن ترقى إلى مستوى "العقلنة" ، ويعني ذلك أن تصبح الثقافة فكريا وتأملا في التقاليد والعادات ومختلف مجالات القيم ، والبحث في هذه القيم ، ليس انطلاقا من منطقتها النفعية ، ولكن من إلزام الصلاحية وفق منظور خطابات العلوم التجريبية ، وأخلاقيات المناقشة ، والنظريات القانونية .

ويقصد بعقلنة المجتمع تجاوز المنظور الاجتماعي لدوركايم ، والذي يري أهمية القيم الدينية في تحويل الفرد من عضو يربطه بجماعة تعاون عضوي ميكانيكي بباقي أعضاء جماعته ، إلى تأسيس عقلنة المجتمع على قواعد ديمقراطية تشاورية، أي أن الاندماج الاجتماعي للأفراد يتم بواسطة الحقوق و القوانين التي تقوم على الشرعية . " فبواسطة الحقوق الحديثة يأخذ القانون قوته الإلزامية من خلال الاعتراف بنظام عادل وشرعي وفق إرادة سياسية"².

وتقوم عقلنة الشخص بالاتفاق القائم بين المكون الذاتي للشخص والمكون الموضوعي، وذلك بواسطة اللغة، كما أنها تقوم على الحدود التي يمكن أن يقيمها الشخص أثناء علاقته بالآخر. فسيرورة التنشئة الاجتماعية تجعل الفرد يندمج باعتباره "أنا" داخل المجموعة.

ينتهي هابرماس من خلال مقارنته للعالم المعيش إلى أن المجتمع يتجلى «كشبكة من العلاقات التشاركية ذات النموذج التواصلية، فما يجمع الأفراد

¹ . Vandenberghe (F)M : «Une histoire critique de la Sociologie Allemande » ,op.cit, p.260.

² . Habermas (j) : « théorie de l'agri » , T1 ,op.cit,p.163

الاجتماعيين هو نوع من النسيج للأفعال لتواصلية ذات الطابع الثقافي يبني العالم المعيش من طرف الأعضاء انطلاقا من التقاليد الثقافية التواصلية، فكل الظواهر الاجتماعية يتم التعاون معها على ضوء سيرورة تأويل تعاوني"¹.

خاتمة :

يعتبر كتاب "نظرية الفعل التواصلية" الأساس الذي قام عليه مشروع هابرماس الفلسفي والاجتماعي. وقد انطلق من البحث في أشكال وأنماط الفعل الاجتماعي، وقد قسمها إلى فعل يقوم على عقل أداتي وفعل يقوم على عقل تواصلية، كما كان هدف هابرماس هو البحث في التميزات بين الفعل غير التواصلية والفعل التواصلية اللغوي .

كما وضع جهازا مفاهيميا يعتبر المفتاح لنسقه، ولهذا السبب تم التركيز في المقالة على تعريف هابرماس لمفاهيم العقلانية التواصلية ، والفاعلية التواصلية . وقد رجعنا إلى مفهوم العالم المعيش بوصفه نظام يتحقق فيه التوافق البيئذاتي والإجماع العقلي على أساس مقوم حاجي .

تعددت ، إذن ، أسئلة هابرماس حول النشاط الاجتماعي ، لكن تم التركيز على النشاط الاجتماعي من بعده التواصلية البيئذاتي .وقد استدعى هابرماس مرجعيات مختلفة من الفكر الغربي بمستوياتها الفلسفية وتلك الخاصة بالعلوم الاجتماعية ،واتخذ موقفا نقديا منها ، خصوصا ما يتعلق بمقاربتها للفعل التواصلية ،والنظرية الحجاجية ،والواقع الاجتماعي . من الصعب فك خيوط نقد هابرماس للفكر الغربي، فالأمر يتعلق بمرجعية فكرية تأسس منذ القرن الثامن عشر إلى غاية اليوم، استطاع هابرماس من مساجلته أكثر من ثلاث عقود ، فكانت نظريته إنتاجا لهذا السجال ،وقد اكتفينا بإثارة أهمية القضايا والمفاهيم الواردة في هذا الكتاب الضخم .

¹ Vandenberghe (F)M : «Une histoire critique de la Sociologie»,op.cit.p.263.

